بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، ومسّت الحاجة إلى إعادة طبعه ، ليكون فى متناول الراغبين فى الاطلاع على مثل هذه الدراسة ، التى تتناول جانباً من أهمّ جوانب التفكير الفنى عند العرب .

وقد قرأ الذين أتيحت لهم فرصة الاطلاع على الطبعة الأولى ذلك النهج السديد الذى سلكه قدامة لدراسة الشعر ونقده ، وما وضع من أسس يصلح أكثرها مقاييس لدراسة فنون الأدب بعامّة ونقدها ؛ لأنها فى الحقيقة لم تقتصر على فن الشعر ، بل تناولت أهم العناصر التى يقوم على أساسها العمل الأدبى ، سواء من ناحية الأفكار واختيارها وتنسيقها ، أو من ناحية أسلوب تأديتها ، والتأنق فى صوغها ، ليكون عملا فنيًّا له اعتباره فى نظر رجال الفن من الأدباء والنقاد . كما قرءوا تلك الأفكار التى أثارها قدامة فى ذلك الزمن البعيد ، واهتدى فيها إلى آراء بدَتْ جِدّتها فى العصر الذى ظهرت فيه ، فى الوقت الذى تساير فيه أحدث الآراء ، ولا يزال كثير من الآراء والمقاييس التى بسطها قدامة تشغل بال المعاصرين من النقاد المشهود لهم بالفهم والتذوق لروح الأعمال الأدبية وطبيعة الأدب ، ووصلهما بالمجتمع والحياة الإنسانية .

إن قدامة فى تاريخ النقد الأدبى معدود فى مقدمة النقاد الموضوعيين ، وكتابه « نقد الشعر » هو الذى وضع أسس هذا النقد الموضوعى فى تاريخ النقد العربى ، وهو الذى أشار إلى المنافذ التى يستطيع الناقد المنصف أن يطل منها على ما يريد من الأعمال الأدبية ، ويضع حداً للإسراف فى الإدلاء بالأحكام التى تنبعث عن الذاتية والهوى ، ويحاول أن يجعل من النقد صناعة واضحة المعالم ، بينة الحدود .

وكانت ثقافة قدامة الواسعة العميقة ، كما كانت عقليته الناضجة ، هما السر فى هذا اللون من النقد الذى اعتبر فى وقته ما جديداً ، وعدّ فى وقتنا ما غريباً أيضاً ، ذلك لأن قدامة لم يجر فى ركب أولئك الذين عرف الناس أفكارهم فى الشعر والأدب ، ولم يعتمد فى آرائه الصائبة غالباً على ما كانت تلوكه الألسنة فى البيئة التى عاش فيها ، أو فيما قبلها ، كما كان ذلك شأن غيره من النقاد أو رواة النقد .

كما عالج قدامة كثيراً من مسائل النقد الكبرى التى يعنى بها النقد الأدبى المعاصر ، ومن بين هذه المسائل التى عنى بها مشكلة الفكرة الأدبية والقالب الفنى ، وما ينبغى أن يجتمع فى كل منهما ، وما ينبغى ان يتحاشى فى كل منهما ، حتى ينتج العمل الأدبى الممتاز الذى يزهى الأديب بنسبته إليه ، ويجد الناقد فيه ما يتطلبه من أسباب الإجادة والإتقان ، وما ينشده من المثل الفنية الرفيعة .

ومن تلك المسائل الكبرى التى يعنى بها النقد المعاصر أيضاً ، مسألة « حرية الأديب » فى التعبير عن عواطفه وأحاسيسه ومشاعره ، وصدقه فى وصف تجاربه ، وهى مسألة كان قدامة أول ناقد عالجها فى تاريخ النقد العربى ، وقال رأيه فيها بصراحة ووضوح ، وغير ذلك كثير من أصول النقد التى بسطناها فى كتابنا هذا .

وكل ذلك يعتمد على أساس سليم ، وأفكار واضحة ، ومنهج علمى منظم سديد . وكان هذا هو السبب فى مظاهر العناية بقدامة فى السنوات الأخيرة ، ونحن نجمع شتات تراثنا ، وننفض عنه غبار الأحداث التى ألمّت بأمتنا العزيزة ، ونقدم منه

زاداً للقوميّة العربيّة الصاعدة فى عهد نهضتها ووحدتها . وبدأ تقدير الجهود التى بذلها قدامة فى خدمة النقد الأدبى ، وتوالت الإشادة به ، والانتفاع بآرائه ، والإفادة من هذا الكتاب الذى أقدّم اليوم طبعته الثانية ، وتلك الإفادة التى ظهرت آثارها فى جُلّ ما كتب فى النقد أو تاريخه ، بعد تأليف هذا الكتاب ونشره ، باللغة العربية ، وما كتب بلغات أخرى ، فى رسائل جامعية ، أو فى كتب منشورة .

وهى ظاهرة نغتبط بها ، لأنها تجعلنا نشعر أننا قدمنا فى هذا المضمار شيئا ذا بال ، وأننا أثرنا أفكاراً جديرة بالإثارة ، ونبّهنا إلى كنز من كنوزنا المخبوءة . غير أن بعض الذين نهلوا من دراستنا ، وأفادوا من جهودنا المفصلة فى هذا الكتاب ، عزّ عليهم أن يعترفوا بأنهم مدينون لهذا الجهد ، وهو اعتراف لا ينقص من شأنهم ، ولا يقلّل من أهمية دراساتهم ، بل إنهم على العكس من ذلك كانوا يقدمون بهذا الاعتراف دليلا على أمانتهم العلمية ، وتحرّى الصدق والإنصاف فيما يكتبون ويؤلفون ، وهو جُلّ ما نطلبه من هذه الجهود التى نبذلها راضين فى سبيل ما نؤمن به من عظمة هذه الأمة ، وسعة باعها فى البحث والدرس .

ولكنا نجد فى جهة أخرى عالماً من الأمانة والإنصاف ، ظهرت آثاره فى طبعة أنيقة محققة بمطبعة بريل بمدينة ليدن سنة ونشرت فى ١٩٥٦ لكتاب قدامة « نقد الشعر » قام عليها أحد فضلاء المستشرقين ، وهو الدكتور س . ا . بونيبا كر S. A. Bonebakker الذى كتب لهذه الطبعة مقدمة وجيزة باللغة العربية ، وذكر فيها أنه اعتمد على كتابى هذا « قدامة بن جعفر والنقد الأدبى » . وكتب دراسة أخرى مفصلة فى نحو ثمانين صفحة باللغة الانجليزية ، تناول فيها جهودنا فى هذا الكتاب مشيداً بها ، ومُنَبِّهاً إلى خلاصة هذه الجهود التى بذلناها فى الكشف

عن حياة قدامة وتقدير نقده ، ورأى أنها قد تكون بعيدة المنال على القارئ الأوربى ، وكان فى هذا الصنيع ما فيه من دلالة على تأصل الروح العلمية الصحيحة التى تنشد الحق ، وتؤثر الصدق .

تلك بعض الأفكار التى عنّت لى وأنا أقدم الطبعة الثانية من هذا الكتاب الذى أعتزّ به بقدر ما بذلتُ فيه من جهد ، وأنا أسأل الله أن يديم به النفع ، وأن يجعله خالصاً لوجه الفكرة العربية التى نؤمن بها ونعمل لها .

وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ؟

مصر الجديدة { ربيع الأول سنة ١٣٧٨ هـ
سبتمبر سنة ١٩٥٨ م

بدوى أحمد طبانة

تقديم

بقلم العالم الجليل الأستاذ أحمد الشايب

— ١ —

نحن الآن فى « دار العلوم » وقد دار الزمان دورته ، وصارت هذه الدار المباركة إحدى كليات الجامعة المصرية ؛ تأخذ برسومها ، وتتمثل مناهجها وتحاول — كغيرها — أن تؤدى رسالتها ، وهى رسالة ، مصرية ، إسلامية ، إنسانية ، هى رسالة مصرية لأن « كلية دار العلوم الجامعية » تقوم على أرض مصرية وتستمد كيانها من هذا الوطن العزيز ، فلا بد أن تعنى بحضارته ، وتصل بين قديمه وحديثه ، وهى إسلامية لأن مصر الآن مستقر التراث الإسلامى ، لا من حيث مادتُه ومصادره فقط ، بل من حيث تمثُّله والقوامةُ عليه ، والأخذ بأسبابه ومقوّماته ، وهى آخر الأمر رسالة إنسانية لأن الجامعة المصرية — ومنها كلية دار العلوم — جزء من هذه الجامعة العالمية التى تخدم الحضارة الإنسانية فى جميع عناصرها ، وبيئاتها ، وعصورها ، ومعنى ذلك كله أن كلية دار العلوم تقدمت لتحمل مسئوليتها فى هذا المجال ، أو يجب عليها أن تستشعر هذه المسئولية الخطيرة ، وأن تحرص على تحملها وتحقيق أهدافها مادامت قد أخذت هذا الوضع الجامعى الحديث .

— ٢ —

وأقول : هذا الوضع الجامعى الحديث ، لأن دار العلوم كانت من قبل مدرسة عالية تُعنى ، أكثر ما تُعنى ، بتخريج المدرسين للأدب العربى والشريعة الإسلامية ، فى معاهد الحكومة ومدارسها ، وتتوسل إلى ذلك بتيسير هذه المواد ومناهجها ، فيمكف أساتذتها وطلابها على استخراج المعارف من مصادرها القديمة ، وتنسيقها ، وعرضها فى أسلوب سهل ، واضح ، تطبيقى ، يستسيغه الطلاب ، ويستوعبون ما يتضمنه من مواد ، ثم يتقدمون إلى تلاميذهم بصورة أكثر يسراً ، وأسهل عرضاً ، ومعنى ذلك أن دار العلوم كانت فى مهنتها ، تتجه من أعلى إلى أدنى ، ومن العُسر إلى اليسر ، واستطاعت بذلك أن تخدم الشرق العربى خدمات تستعصى على النسيان أو الإنكار .

أما الآن ، فقد انعكست الآية ، ووجب على « كلية دار العلوم » أن تتجه من أدنى إلى أعلى ، وأن تسلك سبيل التعسير لا التيسير ، وأن تجعل هدفها تخريج الأساتذة لا المدرسين ، وإعداد الباحثين لا الموظفين ، وإنما أعنى أن تشق على نفسها ، فتدرس المصادر الأصيلة للمواد ، بعد أن تحققها وتنشرها نشراً علمياً ، ثم تغرق فى نقدها ، وتصير على متونها وشروحها وحواشيها لعلها تجد — وستجد حتما — ما يدعو إلى تعديلها ، أو تهذيبها ، أو نقضها أحياناً . وهى ، إذ تفعل ذلك ، مضطرة أن تصطنع مناهج البحث العلمى وهى مناهج عسيرة ، منوعة ، تنصب على الجوانب الفنية ، والتاريخية ، والنفسية وتتطلب أناة وتوثيقاً ، وتفضى بلا شك إلى عرض المواد عرضاً جديداً ، أو إلى وضعها من جديد .

— ٣ —

بهذا الروح ، وذلك المنهج ، تستقبل كلية دار العلوم حياتها الجامعية وقد استقبلتها منذ حين ، فوجدت تراثا إسلامياً مترا كما جليلا ، وحضارة مديدة العهد ، كثيرة الصور ، مشتجرة الفروع ، وتبينت أن هذه الحضارة لابد أن تدرس من جديد ، وأن تدرس دراسة طويلة ، عريضة ، عميقة ، وعليها أن تتوسل بذلك القديم إلى الجديد ، فتعرف ما تأخذ وما تدع وما تضيف وما تبتكر ، لتصل الماضى بالمستقبل ، وتكون لها شخصيتها المتميزة بين كليات الجامعة المصرية أو بين المعاهد العلمية ، ولكم رجوت — ولا زلت أرجو — أن تنشأ فى كلية دار العلوم عدة أقسام تتقاسم فيما بينها مواد هذه الحضارة الإسلامية ليدرس كل قسم جانباً منها دراسة متخصصة مثمرة ، ثم تتكوّن من هذه الدراسات وحدة علمية قوية متماسكة ، فقسم للغة العربية وآدابها ، وثان للشريعة الإسلامية ، وثالث للتاريخ الإسلامى ، ورابع للفلسفة الإسلامية ، وخامس للغات الشرقية من إسلامية وسامية ، وهكذا بحيث تستوعب الأقسام عناصر حضارتنا ومقوماتها ، وتصبح كليتنا بذلك مقر هذه الدراسات الفذ ، ومقصد طلابها من أنحاء الأرض . وحتى يتم ذلك فى دار العلوم أو فى غيرها ، وبهذا الوضع أو بسواه ، نرى أنه تبين لكلية دار العلوم أن عليها استئناف الدرس بأفق واسع وأمل وثاب وجهد دائب . عليها أن تعيد النظر فى البلاغة والنقد الأدبى ،فتدرسهما درساً تاريخياً ، فنياً ، مقارنا . ولعلها تنتهى من ذلك إلى وضع هذين العلمين وضعاً جديداً يريح الدارسين من اضطراب القديم وتركيبه ، ويرشدهم إلى قدر الأدب وتحليله وتفسيره ، ويصل بين هذين العلمين وبين ما يسندهما من علوم النفس ، والجمال ، والاجتماع ، ثم الفلسفة . كما عليها أن تطيل الوقوف عند النصوص الأدبية فتحققها ، وتنشرها مشروحه ، وتعرضها فى نسق

زمنى ، وموضوعى ، بحيث يرى القراء فيها صور الأدب فى العصور المتوالية والبيئات المختلفة ، وبحيث يرون أدبا متقفا جميلا ، يغذو العقل والشعور ، وحينئذ يتقدم تاريخ الأدب ليجد فى هذه النصوص مجاله العتيد ، ويقيم وصفه وتفسيره على قواعد ثابتة متينة لا تتعرض للشك والتجريح . ولا بد أن تتعدد كراسى الادب وتاريخه ، وتوزع بين القديم والوسيط والحديث ، بل لا بد أن يكون لبعض البيئات — كالأندلس — كرسيه الخاص .

أما النحو ، فعلى الرغم من نضجه واحتراقه كما يقال ، فقد بدا لدار العلوم أن تدرس أصوله ، وتنشر مصادره ، وتميز مدارسه ، وتصله بالدراسات النفسية والاجتماعية ، لعلها تجد فى تضاعيف ذلك ، وفى سعة الاستقراء ما يطامن من غلواء هذه القواعد المتكاثرة ، والأرساد التى قد تحكم بالشذوذ على خير النصوص وأصح اللهجات .

وهكذا تسير فتجد يقظة شاملة ، وتنبهاً يأخذ بآفاق اللغويات والفلسفة والتاريخ ، ويحاول التجديد حتى فى الدراسات الشرعية الإسلامية .

— ٤ —

وعلى هـذا الأصل العام ، والشعور بالمسئولية العلمية ، وفى يقظة الضمير الجامعى الأصيل ، أخذ أساتذة « كلية دار العـــلوم » ينشرون بحوثهم تباعا ويستبقون إلى التـأليف ، والترجمة ، والنشر ، ويقفون ؛ كل فى دائرة اختصاصه ، يرقب تاريخ مادته ، ونموها . ويأخذ بيد طلابه فى سبيل الجد ، ومحاولة الابتكار ، ولعله يريد أحيـانا أن يسبق الزمن ليعوض مافاته فى ميدان النضال ، حتى يخلف وراءه فى تاريخ الكلية ، أو فى تاريخ العلم آثاراً تفيد العلم فائدة محققة ، ذلك لأنهم يعرفون حقـاً أن الأستاذية تـكليف لا تشريف ، وأن كرسيها زعامة فـكرية ، وقيادة منهجية ، وأنهـا حلقة

وضاءة ، ولكنها مريرة لمن يقدرها ويفى بهـا ، ثم يكون بها من رجال المتن والسند فى سيرة العـلم ورواياته ، ولكنها أيضاً مساءة كبرى لمن يتولاها رقيقاً رقيقـاً ، ويأخذها سهلة هَيِّنَة ، ويكون بها « مدرساً » يعيش على تراث الماضين وحطامهم لا يدعو إلى حق العلم ، ولا يضع فى بنائه لبنة أو لبنات . . هم عرفوا ذلك فتصوفوا فى محاريب الدرس أو كادوا ، ولكم يعجبك أن تجلس إليهم فتسمع منهم النـوادر اللطيف ، وتجادلهم فتعرف مقدار بلائهم فيما يمارسون ، من بحث دائب ، وعناء مبير .

والشباب من هيئة التدريس ، ماشأنهم ؟ هؤلاء هم الذين تلقوا الحيـاة الجامعية فى شبيبتهم وتلقاها غيرهم على الهرم ، فكان على هـذا الشباب أن يستأنى ، وأن يلتزم الأصول الجـامعية ، يلتزمها دارساً ومدرساً ثم أستاذاً وقد فعلوا ، فتوافرت لهـم دراسات عليا فى مصر وفى أوربا ، تخصصوا فيها ، ولا يزال بعضهم يعد بحثه للظفر بالدرجات العلمية ، وهم جميعاً معقد الرجاء ، ومناط الآمال ، تنتظرهم تبعات ثقال يجب أن يستعدوا لها ؛ إنها تبعات تتضاعف كلما تقدمت الدراسات العلمية فى الجامعة وخارجها ؛ وكلما تكشف من عناصر الحضارة الإسلامية والإنسانية ومقوماتها ، ما يحملهم على إعادة النظر فيما قيـل أو تقرر ، وعلى أن يضيفوا إلى ما عنـدهم جديدا ليساروا ركب الحيـاة المتجددة السريعة ، وإلا — لا قدر الله — سقطوا فى منتصف الطريق .

ولا أستطيع أنا ، ولا يستطيع غيرى ، أن يصور مقدار ابتهاجى كلما لقيت أحدهم يتقدم لنيل درجة جامعية ، أو يصـدر بحثاً أو مؤلفا ، أو يناقشنى فى مسألة علمية أو منهج دراسى ، أو يتعقبنى فيما أقول أو أكتب ، فذلك كله دليل الحياة ، وسمة النشاط ، وداع إلى اطمئناننا نحن الشيوخ ، وثقتنا فى مستقبل كريم لهذه الدراسات الإسلامية إن شاء الله تعالى .

— ٥ —

أقول هذا كله ، وأمامى هـذا البحث لواحد من شباب المدرسين بكلية دار العلوم ، أما البحث فهو : « قدامة بن جعفر والنقد الأدبى » وأما الشاب فهو « الدكتور بدوى طبانة » .

وأحب أن أقدم بين يدى هذا البحث ما يبين اتجاهه من قريب ، فمنذ عهد بعيد ، وحين قامت الجامعة المصرية ، رأينا أن يدرس كل من النقد الأدبى والبلاغة دراستين : تاريخية وفنية ، يفرد لكل درسهُ ، وتتعاون الدراسات كلها على إعادة النظر فى قديم هذين العلمين ، وإعادة وضعهما من جديد ، وقدمنا ما يوضح المنهج والمادة ثم ، نشرنا ذلك منذ سنة ١٩٣٩ ، وكان علينا متابعة هذه الدراسات عساها أن تبلغ الغاية يوما ما .

وصار على الدكتور بدوى طبانة بمقتضى تخصصه أن يسهم فى هذه الدراسة بنصيب لعله أن يكون إيجابياً أصيلا ، ولعله يرضى نهمه العلمى ، وتعلقه بأسباب الجد والمجد ، ولعله يدخل تاريخ البحوث النقدية والبلاغية ، وقد أصدر بعض ذلك قبل أن ألقاه وأعرفه فى كلية دار العلوم ، أصدر بحثه فى « أبى هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية » الذى نال به درجة الماجستير ، وأصدر بحثاً آخر عنوانه « دراسات فى نقد الأدب العربى » .

ثم تقدم لدرجة الدكتوراه بهـذا البحث الذى أقدمه للقراء والدارسين وإذا كان قدامة بن جعفر حلقة فى تاريخ النقـــد الأدبى فقد صار من الحتم الواجب أن يخضع بحثه لهـذا المنهج التاريخى ، وصار على الدكتور بدوى طبانة أن يضع قدامة موضعه من تاريخ النقد الأدبى ، فيصله بسابقيه ،

ولاحقيه ، ومعاصريه ، ليبيّن ماذا أخذ قدامة ، وماذا أعطى ، وماذا ابتكر ، ومقدار ماله من أصالة أو تقليد . وهل تقدّم بالنقد أو انحرف به ، وأخيراً إلى أى الجانبين كان قدامة أشـــد ميلا . إلى جانب التشريع أم إلى جانب التقدير . . وليس ذلك بالأمر اليسير ، فإن تصور المنهج وحدَه وفقه فلسفته ومغزاه ، أمر خطير ، بل هو أخطر شىء فى البحوث الجدية وربما كان درس المناهج — لذلك — أول الدروس الجامعية وأسـناها ؛ فإنه هو المنطق التطبيقى الذى ينظمّ الدراسة ، ويسدّد سيرها ، ويصل بها إلى أهدافها المقررة .

ثم كان لابد لبدوى طبانة أن يُوثق الآثار العلمية والنقدية لقدامة قبل أن يقيم عليها بحوثه ، ويُدير كلامَه ، وقد بذل فى ذلك ما وسعه من جهد وما احتمله من عناء .

وإذا كانت آثار قدامة بن جعفر ثمرة التفاعل بينه وبين بيئته الثقافية والأدبية . فقد وجب على الزميل طبانة أن يُلمّ من عناصر البيئة والسـيرة لقدامة بما يشرح آثاره ، ويردها إلى مصادرها الشخصية أولا ، ثم الإسلامية : من عربية وأجنبية ثانيا .

وقد كان فى سيره دقيقاً ، إذ حرص على مسايرة قدامة خطوة خطوة ، ومسألة مسألة ، يناقشه الحساب ، ويلقاه رفيقاً مَرّة ، وعنيفاً أخرى ، ويردُّه إلى أصل عربى حينا أو يونانى حينا آخر ، فإذا وجد له جديدا عرفه له أو تعقبّه فيه ، حتى إذا أتم استقراءه أخذ يستنبط من ذلك القوانين ويلخصها ، ثم يضع صاحبَه موضعه بين البلاغة والنقد ، وأخيرا يبيّن مكانة هذه الحلقة فى سلسلة البحوث النقدية التى امتدت من القديم إلى الحديث .

وأشهد ، لقد كان بدوى طبانة جاداً فى بحثه ، مستجيباً لكل ما يطلب منه من مقوّمات رسالته ، ينافش المنهج والمادة ، فإذا اقتنع ، وقرأ ، وفقه ، كتب فأحسن الكتابة ، وعرض فأجاد العرض ، وهنا تتراءى لك شخصية الواثق بنفسه ، المطمئن إلى عمله ، المخلص لعلمه ، حتى كانت مناقشته العلنية امتحاناً عنيفاً ، وصراعاً علمياً دقيقاً ، انتهى إلى منحه تقدير (ممتاز) .

ولست أبرىء هذه الرسالة ، فقد يجد فيها القارىء مأخذاً هنا أو هناك ، ولكن ما حيلتنا وقد تفرد الله بالكمال ؟ وموضوع البحث مجال لاختلاف وجهات النظر ؟ . وحسب الإنسان أن يجتهد ، فإن أخطأ فله أجر الاجتهاد ، وإن أصاب فله أجرا الاجتهاد والتوفيق . بل أزيد على ذلك ما قلته فى غير هذا المقام : من أن الخطأ الذى ينشر فى مصطرع الآراء كثيراً ما يكون وسيلة للصواب ، وهذا فضل لناشره الذى تقدم به مجتهداً ، واحتمل تجربته صابراً ، فأصلحه غيره ، أو تنبه هو إليه . فأعاد فيه النظر والاجتهاد .

أما بعد : فقد طال بى السير ، وربما شطّ بى الاستطراد ، وقبل أن أترك القلم لابد أن أهنىء دار العلوم بشبابها ، وأهنىء الدكتور « بدوى طبانة » بما أصاب من توفيق ، وأرجو أن تسير هذه القافلة : من شيوخ دار العلوم وشبابها ، مُجدَّةً محققة رسالتها فى ظل حياتها الجامعية الجديدة ، وكل من سار على الدرب وصل ؟

أحمد الشايب

القاهرة فى أول مارس سنة ١٩٥٤

مقدمة الطبعة الأولى

١ — موضوع هذا البحث « قدامة بن جعفر والنقد الأدبى » ويظهر من هذا العنوان أن البحث يهدف إلى غايتين :

أولاهما : الكشف عن شخصية قدامة وحياته الخاصة ، ووصف البيئة التى عاش فيها، والتيارات المختلفة التى تجاذبتها ، وألوان الثقافة السائدة فيها ، ثم التعريف بالآثار العلمية التى خلفها . وذلك هو موضوع الباب الأول من هذه الدراسة .

والأخرى : التعريف بقدامة باعتباره حلقة من حلقات النقد الأدبى ، ووضعه موضعه فى تاريخ هذا الفن ، ودراسة جهوده ، وبيان أثرها فى تطور النقد ، والكشف عما يكون لها من علاقة بالفكرة النقدية المعاصرة، أو بالفكرة البلاغية ، والنظر بعد ذلك فيما توحى به تلك الدراسة من تجديد فى النقد الأدبى . وذلك هو موضوع الباب الثانى .

٢ — وترجع أهمية هذا الموضوع وجدارته بالبحث وبذل الجهد إلى أسباب كثيرة، منها أنه يتصل بشخصية لها منزلتها بين نقاد الأدب العربى، ومنها أن الآراء النقدية أو البلاغية الصادرة عن هذه الشخصية كان لها شأنها فى القرن الرابع الهجرى ، وبقى لها هذا الشأن فى ميزان البلاغة والنقد فى القرون التى وليته وكانت مثار جدل كثير . ومنها أن قدامة كان صاحب أول كتاب عرفته العربية فى نقد الشعر ، وهذا النقد يشرع فى مجال النقد منهجاً جديداً ، ويتصف بصفات ذاتية وموضوعية ذات طابع خاص ممتاز ، ومنها بيان ما لهذا الرجل

من أصالة وغيرها ، وبجلية منزلته فى هذه الدراسات ، وبخاصة أن ما دار حوله من جدل قد غشاه بكثير من الغموض .

ومع تلك المنزلة للرجل أو لفكرته فإنى وجدت قدامة لم يظفر بالعناية الجديرة به ، وإن عرض له بعض المعاصرين بمحاولة تحقيق حياته ، أو دراسة آرائه فقد شابت التحقيق شوائب دفعت إليها العجلة وحب السبق والانفراد ، وهما مطية الزلل فى التحقيق الذى يستلزم التثبت والاطمئنان ، وأما الآراء فقد عولجت علاجا أبعد ما يكون عن الفحص والتدقيق ، لأنها عرضت عرضاً تاريخياً عاما ، واجتزأ كاتبوها بالنظرة السريعة إلى مآخذ أشار إليها الأقدمون ورددوها ، وإن كان فيها شىء من الحق ، فإن بعض الحق أقرب شبهاً بالباطل منه بالحق ! ثم أملت عليهم تلك النظرات أحكاما تعد فى شرعة الإنصاف إجحافا وظلماً .

وقد جعلت تلك الآراء أمامى ، ومعظمها ينفّر فى البحث ويرغّب عنه ، فمن قائل إنها فكرة أجنبية ومقاييس غريبة ، لا تلائم الأدب العربى وطبيعته . ومن قائل إن أهم كتب قدامة أملته فكرة منطقية بعيدة عن روح الأدب والنقد ، ومن قائل إن « نقد الشعر » كان جناية على النقد ، وأنه أفسد الأدب كما أفسد النقد .

وقد جعلت تلك الكلمات تجرى على ألسنة الدارسين ، وكأنها تقليد لازم ، وحقيقة لا مناص من التسليم بها .

وقد كان بعض ذلك كافياً فى تثبيط الهمة ، وصرف الجهد عن هذا العمل إلى عمل آخر قد يكون أقرب سبيلا وأجدى نفعاً ، لولا أنى رأيت أن استقاء الفكرة من موردها أولى من اجتدائها من الواردين ، فكان من إدامة النظر والفحص والتدقيق ما هدى إلى آفاق جديدة ، ووقّف على كلام غير ما كان يقال ،

وعرّف بآراء جديرة بالنظر والاعتبار ، تكوّن منهـا أخيرا البحث الذى تجده بين يديك .

٣ — وربما كان من عوامل تشجيعى على خوض هذا البحث طبيعة عملى فى تدريس البلاغة والنقد ، وهى تلزم دائما بالبحث والتنقيب فى آثار السلف للكشف عما فيها من كنوز تنفض عنها غبار السنين ، ونصلها بما يمكن أن توصل به من رأى جديد أو فكرة مستحدثة ، لنصل غدنا المؤمل بأمسنا الحافل . وهذا فيما أعتقد جزء من رسالة دار العلوم فى بعث الفكرة القومية وإحياء الثقافة العربية ، فى حياتها الجامعية الجديدة . وقد أسلفت فى هذا السبيل بحثا فى كتابى « أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية » الذى قلت فى مقدمته : إن الشخصية فى هذه الدراسة غير مقصودة لذاتها ، وإنما المقصود تتبع تفكيرها والوقوف على مصادرها وموارداها باعتبارها ظاهرة فكرية فى حقبة من الزمن . على أن دراسة الشخصيات فى مثل هذا الاتجاه أجـــدى وأنفع ، حتى تكون الجزئيات مفهومة قبل معالجة الكليات . ومن الخير أن نفرد لكل شخصية من تلك الشخصيات الفكرية ما تستحق من دراسة خاصة ، حتى إذا اكتملت تلك الدراسات كان من اليسير أن نستخلص منها ما نريد استخلاصه من أصول النقد وأساليبه بصفة عامة[1] وهذا ما أقوله اليوم وأنا أقدم بحثى فى « قدامة ابن جعفر والنقد الأدبى » .

٤ — أما منهج البحث فإنه يخضع بعامة للطريقة التاريخية ، التى تقضى بتتبع فن النقد منذ نشأته إلى عهد قدامة ، وتتبع جهود قدامة فى ضوء ما سبقه وما عاصره من جهود ، وما حاول قدامة أن يتقدم به إلى مجال النقد ، ومقدار أثره فيمن وليه ، وكل ذلك فى دائرة البحوث العربية القديمة ، ثم فى ضوء

---

(١) انظر كتابنا « أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية » ١٢

ما انتهت إليه البحوث النقدية والبلاغية فى العصر الحديث . وقد استدعى ذلك ضرورة الإلمام بتاريخى النقد والبلاغة بمقدار ما يقوّم هذا البحث ، كما اقتضى الاستنارة بما كتب حديثاً فى تلك الفنون وتتبع قدامة مسألة مسألة .

٥ — وقد اقتضى تحقيق الجانب التاريخى من الموضوع الرجوع إلى مصادر كثيرة من كتب التاريخ والسير والأدب التى عرضت للكلام عن قدامة أو من كانت له به صلة ، أو ورد اسمه فيها عرضاً أو قصداً ، وفى مقدمة تلك المراجع :

(١) كتاب «الفهرست» لمحمد بن إسحاق النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ « طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ » .

(٢) كتاب « تاريخ بغداد أو مدينة السلام» للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ « طبعة القاهرة ١٣٤٩ هـ » .

(٣) كتاب« المنتظم » لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ : مصورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٩٦ (تاريخ) .

(٤) كتاب « الإيضاح » لناصر بن عبد السيد المطرزى المتوفى سنة ٦١٦هـ : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٩ (أدب) .

(٥) كتاب«معجم الأدباء» لياقوت المتوفى سنة٦٢٦هـ: طبع دار المأمون بالقاهرة

(٦) العطايا السنية والمواهب الهنية فى المناقب اليمنية للملك السلطان الأفضل العباس ابن الملك المجاهد على المتوفى سنة٧٧٨هـ : مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥١(تاريخ) .

(٧) الوافى بالوفيات للصفدى : مصورة شمسية رقم ١٢١٩ (تاريخ) بدار الكتب

(٨) كتاب«عقد الجمان» للعينى (٨٥٥ هـ)مصورة شمسية رقم ١٥٨٤ بدار الكتب .

(٩) كتاب « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » لملا كاتب چلبى « طبعة الاستانة . ١٣١٠هـ » ، وقد رجعت إليه فى تحقيق كتب قدامة وآثاره .

ومن أهم مارجعت إليه من آثار المعاصرين البحث الذى كتبه الأستاذ عبد الحميد العبادى تحت عنوان « تحقيق فى حياة قدامة » وجعله مقدمة للكتاب الذى نشره مع الدكتور طه حسين باسم « نقد النثر » : الطبعة الثانية سنة ١٩٣٧ م .

٦ — وفى دراسة النقد الأدبى كان عمدة البحث فيها ماحفظ التاريخ من آثار قدامة ، وفى طليعة تلك الآثار :

(ا) كتاب « نقد الشعر » الذى اطلعت منه على ثلاث طبعات :

الأولى : بمطبعة الجوائب (قسطنطينية ١٣٠٢ هـ) عن نسخة خطية فى كوبريلى (رقم ١٤٤٥ ـ ٢)

والثانية : بالمطبعة المليجية (القاهرة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م) وفى أولها ترجمة وجيزة لقدامة وبحث موجز فى النقد الأدبى بقلم « محمد عيسى منون » وفى حاشيتها تفسير لبعض الكلمات .

والثالثة: بمطبعة أنصار السنة المحمدية (القاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م) وقد أشرف عليها « كمال مصطفى » ونشرتها مكتبة الخانجى [1]

والطبعتان الأخيرتان منقولتان عن طبعة الجوائب . وقد اعتمدت فى أرقام صفحات نقد الشعر الواردة فى ثنايا الطبعة الأولى من هذا البحث الطبعة الثالثة إذ هى التى تيسر لى اقتناؤها إذذاك والتعليق عليها ، وهى تقع فى نحو ٢٢٠ صفحة من القطع المتوسط ، وقد استظهرت على الاطمئنان على صحتها وتوثيقها بأقوال قدامة والنصوص التى نقلها عن نقد الشعر بعض العلماء والمؤلفين ، وأهمهم فى تلك الناحية المرزبانى ، وهو قريب عهد بقدامة « توفى المرزبانى ٣٨٤ هـ » فى كتابه

---

(١) طبع هذا الكتاب طبعة أنيقة محققة فى مطبعة بريل بمدينة ليدن سنة ١٩٠٦ بإشراف وتحقيق الدكتور . س . ا . بونيباكر (انظر مقدمة الطبعة الثانية ٥) وقد اعتمدنا عليها فى أرقام صفحات نقد الشعر الواردة فى ثنايا هذه الطبعة الثانية .

« الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء » وابن رشيق ، وابن سنان الخفاجى من علماء القرن الخامس فى كتابيهما « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » و « سر الفصاحة » .

(ب) كتاب « الخراج وصنعة الكتابة » وهو كما ذكر ياقوت كان ثمانى منازل ثم أضاف إليها قدامة تاسعة . والموجود من تلك المنازل أربع : الخامسة ، والسادسة ، والسابعة ، والثامنة ، فى مصورة شمسية محفوظة فى دار الكتب المصرية (رقم ١٩٧١ فقه حنفى) ومثبت عليها اسم الكتاب ومؤلفه وتاريخ وفاته هكذا « كتاب صنعة الكتابة لأبى الفرج قدامة بن جعفر البغدادى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ » وتلك المصورة مهداة لدار الكتب من الأمير عمر طوسون فى ٣ / ٧ / ١٩٣١ . وهى منقولة عن نسخة حسنة الخط ، لم يعرف تاريخ نسخها . وكتب ناسخها فى آخرها ، وهو خاتمة المنزلة الثامنة « قد تم كتاب الخراج فى غرة شهر ربيع الأول فى دار العلية الإسلامبولية فى يد أقل الخليقة ، بل لا شىء فى الحقيقة ، عبد الله بن مرزا محمد الخولى . حسبنا الله . نعم الوكيل . نعم المولى ونعم النصير » . وقد انتفعت به فى الوقوف على ثقافة قدامة العامة والفنية وطبيعة عمله فى الدواوين ، وفوائد أخرى كثيرة .

(حـ) كتاب « الألفاظ » كما ذكر اسمه المطرزى ناصر بن عبد السيد ، أو « جواهر الألفاظ » كما كتب على النسخة المطبوعة فى القاهرة « مطبعة السعادة ١٣٥٠ هـ ١٩٣٢ م » عن نسخة خطية عثر عليها السعد أمين الخانجى فى أثناء رحلته إلى العراق ، وأشرف على تحقيقه الأستاذ « محمد محيى الدين عبد الحميد » ، وهو معجم فى الألفاظ والتراكيب العربية عدد صفحاته ٢٥٢ صفحة من القطع الكبير ، وقد انتفعت به فى الوقوف على ثقافة قدامة اللغوية ، ونظريته فى الجرس وموسيقى اللفظ ، ومعرفة بعض ضروب الحسن البيانى التى لم يرد ذكرها فى نقد الشعر ، وأمثلة من المنثور لما ورد فيه .

وعدا كتب قدامة استشرت طائفة كبيرة من الكتب النقدية والبلاغية

تمثل المدرسة الأدبية والمدرسة الكلامية فى دراسة الأدب العربى فى القديم والحديث ، وبعض ماتيسر لى الاطلاع عليه مما كتب فى اللغة الانجليزية فى النقد والبلاغة مما أثبت أرقام صفحاته فى الهامش ، وسجلته كاملا آخر البحث فى ثبت كامل ، استوفى أسماء الكتب ومؤلفيها وطبعاتها .

وبعد ؛ فهذا موضوع البحث وهدفه ، وذلك منهجه ، وتلك مصادره ، ذكرتها فى إجمال ، ثم يأتى تفصيلها فى الأبواب والفصول التالية .

* ٥ *

ومما يقتضيه الوفاء والاعتراف بالفضل لذويه أن أتقدم بالشكر إلى أستاذ من أساتذة الجيل ، يعرفه العلم باحثاً منقبا ، ويعرفه العلماء مرشداً وهاديا ، وهو السيد « الأستاذ أحمد الشايب » الذى أشرف على هذا البحث ، وشارك فى رسم خطته ، وذلل بغزاره علمه وسماحة نفسه كثيراً من عقباته ، ولعلى وفقت إلى تحقيق بعض آماله فى نضج هذا البحث واستوائه ، جزاه الله عنى وعن العلم خير ما يُجزى به العلماء المخلصون . والحمد لله حمد الشاكرين ؟

مصر الجديدة { ١٧ من جمادى الأولى ١٣٧٣ هـ
٢٢ من يناير ١٩٥٤ م

بدوى أحمد طبانه

تمهيد

ربما كان البحث فى خصائص النقد الأدبى والبلاغة وموضوع كل منهما ووظيفته أجدى من الحديث فى الحدود والتعريفات ، ذلك بأن الدارس يجد نفسه أمام سيل من الحدود المختلفة باختلاف الدارسين واختلاف عصورهم وأجيالهم ، ولما يستقر الوضع لدى الأمم المختلفة ولا عند النقاد ، عند تعريف واحد يرتضونه ، حتى فى الأمة الواحدة ، وفى العصر الواحد . ولا ينتظر هذا الإجماع فى أمور تتعلق بالفنون وتقديرها فيما بعد ، لأن هذا التقدير مرجعه إلى طبيعة تلك الفنون ، التى يصل تأثيرها إلى القلب ، وتؤثر فى العواطف والمشاعر ، قبل أن تلجأ إلى استشارة العقل والتفكير ، وإن كانت معالمها وخصائصها ماثلة فى النفوس ، واضحة فى الأذهان .

إذا مر الأديب بتجربة من التجارب ، فعبّر عنها فى صورة من الصور الأدبية ، فقد يكون غرضه مجرد إشباع عاطفة فطرية فى التعبير عن النفس ، وقد يكون هدفه من تصوير تلك التجربة أن يوحى إلى مستقبلى عمله الأدبى بالتأثر بالتجربة التى مر بها ، والصورة التى أبرز فيها تلك التجربة .

وكثير من القراء أو السامعين تحدث فى نفوسهم الآثار التى أرادها الأديب ، فيرضون أو يسخطون ، من غير أن يحدثوا أنفسهم عن سر هذا الرضا ، أو مبعث ذلك السخط ، وعدد قليل منهم يسأل نفسه عن العوامل المثيرة التى تركت فى نفسه هذا الأثر .

وإذا كان الأدب فنا يحقق هدفه بواسطة العبارة ، فمن جملة تلك الأسئلة أعن قوة فى المعنى حدث هذا التأثير ؟ أم عن ابتكار فى رسم الصورة ؟ أم عن روعة فى تاليف الخيال ؟ وهل امتاز العمل الأدبى من الناحية التعبيرية ، فاستخدمت فيه أساليبه الخاصة وألفاظه المعبرة ، التى تتميز عما ألف الناس فى حياتهم اليومية من ضروب التعبير ؟ .

وهم فى أكثر الأحيان لا يجدون الأثر الذى كانوا ينشدونه كاملا فى كل جزء من أجزاء النص الذى قرءوا أو سمعوا ، وإنما يجدون تفاوتا فى الحسن بين أجزائه ، واختلافا بين القوة والضعف فى الفكرة أو فى تصويرها .

ولو فرضنا أنهم وجدوا الحسن كاملا فى نص فلن يجدوه على هذه الدرجة من الكمال فى نص آخر للأديب نفسه . وسيجدون أنفسهم أخيرا أمام عدد من الشعراء أو النثار تفاوتت منازلهم بين أعلى درجات الكمال وأحط مراتب النقص ، فيسألون أنفسهم عن سر السمو فى عمل من الأعمال الأدبية ، أو عند أديب من الأدباء ، وعن أسباب الاتضاع فى أعمال أخرى أو عند أدباء آخرين ، فيصفون ما رأوا وما أحسوا .

وقد يحكمون على الأثر الأدبى بحسب أثره فى نفوسهم وإثارته لعواطفهم وذكرياتهم ، ويندون بالقبيح . وهذا هو النقد « Criticism » وهو عمل من الأعمال الادبية ، يظهر فيه الجانب التطبيقى للمشاعر أو للتجارب والمعارف والثقافات عند الناقد أكثر من ظهور الجانب النظرى : لأن المفروض ابتداء أن النص الأدبى يكون ماثلا بين يدى الناقد ، يدرسه ليفهمه ، ويحلله ليقف على نواحى الجمال فيه ، ثم يعبر عن رأيه فيه ، لأن الغرض من عمله هو تميز القيم الأدبية الصحيحة .

ويمر النقد بمثل ما تمر به الحياة النفسية من مراحل المعرفة أو الإدراك ، ومرحلة الوجدان أو الشعور بالعظمة أو الانحطاط ، ثم مرحلة الإرادة ، ويقابلها هنا الحكم الذى يصدر على الأديب ، أو على عمله الأدبى .

وقد تتسع دائرة النقد الأدبى ، فيشمل « تقويم العمل الأدبى من الناحية الفنية ، وبيان قيمته الموضوعية وقيمته التعبيرية والشعورية ، وتعيين مكانه فى خط سير الأدب ، وتحديد ما أضافه إلى التراث الأدبى فى لغته وفى العالم كله ، وقياس مدى تأثره بالمحيط ، وتأثيره فيه ، وتصوير سمات صاحبه ، وخصائصه

الشعورية والتعبيرية ، وكشف العوامل النفسية التى اشتركت فى تكوينه ، والعوامل الخارجية كذلك[١] .

* * *

وإذا تعددت دراسة الآثار الأدبية ، وقيست أجزاؤها ، ووزن بعضها ببعض ، وجد الدارس فيها ملامح متشابهة ، كانت هى السر فى التأثر ، ومبعث المتعة والإحساس بالجمال .

وقد يحاول الناظر فى تلك الآثار أن يجمع شمل تلك الملامح المشتركة ، وأن يؤلف بينها ويجعل منها قواعد وأصولا ومقاييس ، يحتذيها الأدباء ، وينتفعون بها إذا حاولوا عملا أدبيا .

وكثيرا ما يضم هذا الدارس إلى ما استخلصه بذوقه وثمرة ثقافته واطلاعه وإعمال عقله ثمرة اجتهاد غيره ، إذا ما رآها متفقة مع ما اهتدى إليه من الآراء ، ثم يعمل على تنظيم تلك الآراء ، فيضم منها الإلف إلى إلفه ، ويكُونُ من ذلك أبواب وفصول وقواعد ، تصطبغ بصبغة العلوم ذات الموضوعات المحدودة ، والتى تعنى بالحدود والتقاسيم ، لتكون صالحة للأخذ والتلقى والاستظهار والاختبار ، وحينئذ يبرز جانب العقل والتفكير ، ويتضاءل حظ الإحساس والتذوق والتأثر العاطفى .

وخلاصة تلك الجهود الفردية والمشتركة التى صبت فى هذا القالب العلمى هى ما يعرف بالبلاغة « Rhetoric » .

وفى تلك الحالة لا يوضع النص الأدبى كله بما فيه من حسن وقبح بين يدى الدارس ، لينظر فى محاسنه ومعايبه ، أو يحكم عليه بالجودة أو بالرداءة ، كما كان يفعل به الناقد ، وإنما يكتفى بأن يختار من الحسن فقط شواهد يتمثل بها لتأييد القواعد ودعمها . ولا يقف الاستشهاد على أبيات من قصيدة واحدة ، أو عمل أدبى

---

(١) النقد الأدبى : أصوله ومناهجه للأستاذ سيد قطب : ص ٦

واحد ، لأن الأمر هنا قد خرج من دائرة النظرة الخاصة فى أثر خاص إلى ميدان التعميم الذى يشمل الأدباء جميعا ، والآثار الأدبية عموما ، فتختار لهذه الغاية أبيات من قصائد مختلفة ، أو فقرات من المنثور لأدباء مختلفين ، تلائم كل مبحث من مباحث البلاغة .

* * *

ويظهر لنا من هذا تلك الصلة الوثيقة التى تصل النقد بالبلاغة ، حتى لقد يبدو من العسير محاولة التفريق بينهما ، أو وضع حد يفصلهما ، لأن النقد كما رأينا هو المنبع ، وهو الأساس الذى استقت منه وقامت عليه قواعد البلاغة .

وإذا كان هدف (النقد) البحث عن الجمال ، ومحاولة إحصاء مظاهره ، والإشادة به ، وذكر القبح فى معرض التنديد به والتحذير منه ، فإن (البلاغة) هى ثمرة هذا البحث ، ومجتمع مظاهر الجمال ، سيغت فى فصول وأصول وقواعد لكنها ليست قواعد قد سنها الفكر أولا ، ليجرى عليها الأدب ، بل إن طبيعة الأدب موجودة من قبل ، سواء بُحثَتْ أم لم تبحث . شأنها فى ذلك شأن جميع الأشياء . فقواعد الأدب هى الأجوبة التى يهدينا إليها عقلنا حينما نتساءل عن ماهية الأدب وخصائصه[١] .

وقد سمى « كرمى » مثل هذا البحث ، الذى نراه ينطبق على ما يراد بالبلاغة « نظرية الأدب » ، وقال عنها : إنها أسئلة معقولة يسألها المرء عن كل شىء يتعلق بالأدب ، ثم الإجابة عنها كذلك إجابة عقلية . إذا كانت تلك الأسئلة تتدرج من الأدب العام إلى القطعة الأدبية الخاصة ، وسمى النوع الثانى الذى يتدرج من الخاص إلى العام « النقد الأساسى » « Criticism Proper » .

ولعل المقصود بعبارة « نظرية الأدب » التى قلنا إنها يمكن أن تنطبق

---

(١) لاسل آير كرمى : قواعد النقد الأدبى ٨ ، ترجمة الدكتور محمد عوض محمد .

على ما يراد بالبلاغة ، أنها دراسة نظرية للأدب ، لأنها وضع القاعدة ، ومحاولة تطبيقها ، كما يفعل بالنظريات الهندسية تماما ، إذ هى تفترض الشكل الخيالى ، وتضع له القاعدة ، ثم تحاول تطبيقها عمليا .

ويرى الأستاذ ونشستر Winchester أن النقد يختلف عن البلاغة من ناحيتين رئيسيتين :

(١) أن البلاغة تهدف إلى أن تعلمنا كيف نكتب ، أما النقد فإنه يفترض أن الكتابة قد تمت ، ثم يعلمنا المبادىء التى نستطيع بمقتضاها أن نقدر ماهو مكتوب .

(٢) أن البلاغة تعنى فى الغالب بالأسلوب ؛ فإذا افترضنا أن رجلا لديه ما يريد أن يكتبه ، ولكن لا يحاول أن يحكم على ما إذا كان جديرا بالقول أم لا ، فإن البلاغة تعلمه كيف يكتب ، أو يقول . والنقد يعالج أولا المادة التى يكتبها إنسان ما ، والأثر الذى يمكن أن تحدثه فى القارىء .

وعلى الرغم من أن النقد أيضا ينافس الأسلوب أو الشكل ، فإنه يعالجهما بشكل أوسع مما تعالجهما به البلاغة . والنقد لا يعالج تركيب الجمل والفقرات ، أو آلية الأسلوب ، بقدر ما يعالج تلك الصفات غير الملموسة ، التى تظهر من التعبير الحق عن الآراء والعواطف والخيال ، مما لا يمكن إخضاعه للتحليلات الجافة للقواعد البلاغية .

وعلى ذلك فإن مجال النقد أوسع من مجال البلاغة ، ولكن يبدو أن مبادئه أغمض من قواعد البلاغة[1] .

* * *

ومثل هذا الذى قدمناه صورة حقيقية تمثل خط سير دراسة الأدب العربى ، وتطوره من النقد إلى البلاغة ، فقد ابتدأت تلك الدراسة بالآراء الفردية والنظريات

---

(1) Winchester, Principles of Literary Criticism, 16—17.

المحدودة فى جزئيات من العمل الأدبى ، إلى الحكم على الأديب بمقتضاها بالثناء عليه إذا أصاب توفيقاً فى بعض الأوضاع المعنوية أو الشكلية ، على حسب المقاييس التى يعرفها الخاصة فى تذوق الأدب والحكم عليه ، أو عيبه إذا خالف تلك الأوضاع الجميلة فى نظرهم ، أو خرج على المألوف من ذوقهم .

ثم تضاءلت تلك الآراء الفردية وتماسكت ، وجرت على ألسنة الرواة ، كما جرى المأثور من الأدب نفسه على ألسنتهم ، حتى إذا رأوها جديرة بالتسجيل حرصوا على تسجيلها ، كجزء من تراثهم ، الذى يعتزون به فى عصور التأليف والتدوين ، وأخذوا يزيدون فيها ، وينقصون منها ، ويبحثون عن مواطن الحسن التى خفيت على السابقين ، فتكلموا فى عناصر الأدب ، ومنزلة كل عنصر منها فى تقويم العمل الأدبى ، ونمت تبعاً لتلك الجهود الثروة النقدية بنمو الحضارة ، وتسرب الثقافات الأجنبية فى العلم والأدب ، فشمل نقدهم الفنون الأدبية ، ورجال الأدب ، فى مواقفهم وحالاتهم ، وعالجوا كل ناحية من نواحى النص الأدبى ، وكل جزء من أجزائه علاجاً قد يطول ، وقد يقصر .

وكثيراً ما كانوا يخلطون تلك الدراسة بنصائح وتوجيهات يتقدمون بها إلى الأدباء ، ليقتدوا بما فيها من أمارات الحسن التى استحق قوم بها التقدير والخلود ، وليتأوا عن مواطن الضعف التى وقع فيها جماعة قضى عليهم بالفناء ، أو انحطت منزلتهم بين منازل الأدباء .

وقد أطلق على تلك الدراسات اسم « علم البيان » الذى لم تقتصر مباحثه على تذوق الأدب وتميز جيده من رديئه ، وإنما تعدت تلك الغاية الفنية إلى غاية دينيه هى البحث فى إعجاز القرآن ، والوقوف على النواحى التى تفرد بها ، وتميز من سائر فنون كلامهم .

« وسواء أكان علم البيان يدرس لتميز جيد الأدب من رديئه ، أم كان

يدرس للوقوف على إعجاز القرآن ، فإن الفن هو الذى كان يحركه ، وأصول الجمال هى التى كانت دعامة له . وعلى كل حال فإن « علم البيان » لم يعد رسماً وهداية ، بل تحليلا ونقداً . وإذ أن محاسن الكلام كثيرة فقد أخذ علماء البيان يتلمسون حصرها ، ويرجعون كثيراً منها إلى الكلام فى الحقيقة ، والمجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والذكر ، والحذف ، والتقديم ، والتأخير ، والفصل ، والوصل ... إلخ . أخذوا يحصون هذه المحاسن ، ليستعينوا بها على تذوق الأدب ، وعلى تذوق الروعة والبهجة فى القرآن الكريم . وكذلك صار علم البيان نقداً ، وكذلك دفعته مسألة الإعجاز إلى أن يخوض فى تحليل فنون القول ، وإلى أن يعرف ضروبه ومناحيه ومواضع الحسن فيه[1] .

* * *

ولعل خير كلام فى البلاغة أنها « ما تبلّغ به المعنى قلبَ السامع فتمكنه فى نفسه ، كتمكّنه فى نفسك ، مع صورة مقبولة ، ومعرض حسن » .

وجُعل حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً فى البلاغة لأن الكلام إذا كانت عباراته رثة ، ومعرضه خلقا ، لم يسم بليغا ، وإن كان مفهوم المعنى ، مكشوف المغزى[2] .

ويعلم من هذا أن البلاغة بحث فى الوسائل ، ورسم للأصول والقواعد التى يصبح الكلام بها جديراً أن يسمى بالحسن ، ويوصف بالجمال . وذلك أن الجمال يبدو فى معناه الذى يستطيع أن يغزو قلب السامع ، ويتمكن فى نفسه ، أى أنه يستطيع التأثير بالإدراك وإثارة الانفعال . وتلك غاية الفنون ومنها فن الأدب ، وإذا كان لكل فن منها وسيلته ، التى يحقق بها تلك الغاية من إحداث التأثير ، وإثارة الانفعال ، وتحريك العاطفة ، فى نفس مستقبله ، فإن للأدب وسيلته الخاصة ، وهى العبارة أو الأسلوب .

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب للأستاذ طه أحمد ابراهيم : ص ٤

(٢) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى : ص ١٠

ولهذا اشترط فى تلك العبارة أن تكون حسنة ، وفى الصورة أن تكون صحيحة مقبولة فى نظر أولئك الذين مارسوا تلك الصناعة ، وعرفوا مواطن الإصابة منها بحسِّهم الفنى وثقافتهم الأدبية .

وعلى هذا فإن إفهام المعنى وحده ليس كافيا فى الحكم على الكلام بالبلاغة أو الجمال ، لأن العامى واللحان قد يبلغان الإفهام ، ونقل ما يريدان إلى السامع ، كما يستطيعه الأخرس والألكن والطفل والمتمتام بالعبارة القاصرة ، أو الإشارة الدالة .

فالبلاغة جمال فى المعانى ، وجمال أيضا فى العبارة ، ومعرفة لعناصر الجمال فى الركنين ، وإحصاء مظاهرها ، التى يصل بها فنّ الأدب إلى غايته .

* * *

وقد نصوا أيضا على أن البلاغة فى الكلام «أن يكون مطابقا لمقتضى الحال مع فصاحته» ، والحال هو الأمر الداعى للمتكلم إلى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المراد خصوصية ، وهو مقتضى الحال ، مثلا : كون المخاطب منكرا للحكم حال تقضى تأكيد الحكم ، والتأكيد مقتضى الحال . ومقتضى الحال مختلف ؛ فإن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام[1] .

* * *

وهذا المعنى الذى عرفه البلاغيون العرب من أن البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ؛ هو ما يعرفه علماء الغرب ، وعبارة الأستاذ جنج « Genung »

---

(١) انظر : شروح التلخيص ج ١ ص ١٢٨

فى تعريفها : البلاغة « Rhetoric » هى فن مطابقة الكلام ، وجعله منسجما مع الموضوع والمناسبة ، ليحقق أغراض القارىء أو السامع[١]

ولسنا نرى فى كلامهم دليلا أنصع على قرب البلاغة من النقد ، وعلى اختلاط مسائلهما من هذا الدليل ، فإن هذا الكلام ، وإن كانوا قد خصوا به البلاغة ، من صميم عمل الناقد ، لأنه هو الذى ينظر إلى العمل الأدبى ، وإلى تركيب الكلام ، وإلى أحوال المخاطبين ، وما تقتضى من أنواع الأساليب .

فإذا استعمل الأديب من الأساليب البيانية ما يناسب موضوعه ، وما يلائم معانيه ، وما يوافق نفسية سامعيه وعقليتهم ، فقد أصاب ، وحكم الناقد عليه بالبراعة وعلى عمله الأدبى بالجودة ، وإلا عابه بالتقصير ، ووصف كلامه بالقبح والرداءة .

ومعنى ذلك أن الناقد هو الذى يطبق الكلام على مقتضى الأحوال ، وهو حينئذ محتاج إلى ثقافة واسعة من المعرفة باللغة وأساليبها ، ومعرفة بالنفوس وطبائعها فى هدوئها وثورتها ورضاها وسخطها ، ليستطيع التمييز والحكم « وتتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره[٢] .

* * *

وإذا كان من الممكن كما يرى الأستاذ ونشستر Wincheter تحديد دائرة البلاغة ، ومن العسير تحديد النقد ، فإن ذلك يرجع إلى سببين :

(١) أن البلاغة بأوضاعها الراهنة أصبحت علما مستقرا ، وضعت قواعده ونظمت مباحثه ، ووضحت معالمه ، ولذلك أصبح مجال التجديد فيها ضيقا محدودا .

---

(١) Genung, The Working Principles of Rhetoric, p. 1

(٢) انظر : مفتاح العلوم للسكاكى : ص ٧٠

أما النقد فإن جانب التذوق والتأثر فيه أظهر من جانب المنطق والتفكير ، والذوق الذى يعتمد عليه التذوق عرضة للتغير والاختلاف ، بتغير الأزمان ، وتفاوت الأجيال ، وتباين البيئات واختلاف الثقافات . ولا يزال ميدانه يتسع ، وتبدو فيه اتجاهات جديدة .

(ب) والسبب الثانى أن القواعد البلاغية مستمدة من مواضع الحسن فى كلام السابقين ، وقائمة على أساس من دراسة الأدب القديم وتقاليده التى سبق وضعها .

أما النقد فإن سر تجدده ، وسر صعوبة حصر دائرته ، فهو أن الأدباء من الشعراء والكتاب والخطباء لا يزالون يفتنون فى التجديد ، ويتأنقون فى اختيار موضوعاتهم ومعانيهم ، التى يشتقونها من حياتهم ومعلوماتهم وثقافاتهم ، وآثار اطلاعهم على نتاج غيرهم من أدباء الأمم الغربية عنهم . وفى هذا الجديد يجد النقاد دائما مجالا لدراساتهم ، وتجديداً لأحكامهم ، حتى يجارى كل جديد فى الأعمال الأدبية .

وإذا كان النقد يسلك مسلكا عمليا لأنه يصف النص ، ويحلله ، ويناقشه ويوازنه بغيره ، ويحكم عليه وعلى قائله ، وكانت البلاغة تسلك مسلكا نظريا فى وضع القواعد ، والتماس الشواهد لها من النصوص الجيدة ، فإن الذى يجب أن نعرفه هو إن القواعد البلاغية ، وإن جاز وصفها بالنظرية ، لها أساس من الواقع ، فإنها وضعت بعد النظر فى نصوص قيلت ، وفحص عما فيها من أسباب القوة أو الضعف ، وعناصر الجودة أو الرداءة .

وقد عمد أولئك البلاغيون أو النقاد إلى إخفاء أسماء من عرضوا لهم ولأدبهم بالمدح أو الذم . ولا يمكن أن يتصور أن تلك الآراء غير ذات موضوع ، أو أنها عالجت شيئا لا وجود له ، وأنها وضعت بتأثير التصور والخيال ، فإن الخيال — مهما تكن درجته — يقبس من الحقائق الماثلة والواقع الموجود .

ولا نستطيع أن نتصور أن بلاغيا أو ناقدا بنى من الوهم المطلق نظرية محدودة المعالم واضحة السمات ، وغاية ما يمكن أن يقال أنه نشد الصورة الكاملة

باستعراض صور مشوهة أو ناقصة ، وفى بعض تلك الصور المشوهة أو الناقصة رأى ملامح الجمال أو بعضها ، فجمع الملامح الجمالية من هذه وتلك ، وناقت نفسه إلى رؤية الحسن موحدا مجتمعا فى مثال ، فرسم هذا الحسن المثالى فيما اقترح من آراء وفيما نظم من نظريات[1] .

ويلاحظ أن حياة النقد فى الأدب العربى صحبت حياة الشعر ، وجرت مع طبيعته ، وتطورت فكرة النقد مع تطور الأمة العربية ، بحسب العوامل التى أثرت فى حياتها وعقليتها وثقافتها ، فقد كان النقد فى الجاهلية « عبارة عن ملاحظات على الشعر والشعراء ، قوامها الذوق الطبيعى الساذج ، وقد مكن له تنافس الشعراء ، واجتماعهم فى الأسواق وأبواب الملوك والرؤساء ، وهذه العصبية من القبيلة للشاعر ، ومكانة الشاعر ، وكلامه بين البادين . فكان ذلك كله سبباً لتجويد الشعر من ناحية ، ولتعقب الشعراء بالتجريح والتقريظ من جهة ثانية .

وكان النقد يتناول اللفظ والمعنى الجزئى المفرد ، ويعتمد على الانفعال والتأثر دون أن تكون هناك قواعد مقررة يرجع إليها النقاد فى شرح أو تعليل ، وينتهى إلى بيان قيمة الشعر ومكانة الشاعر بين أصحابه[2] .

فلما كان الإسلام اتجه النقد اتجاهاً جديداً ووضع له أول مقياس تقاس به معانى الشعر ، بعد ان لم يكن هنالك مقياس ثابت متداول يحكم به عليها ، وكان ذلك المقياس هو الدين ، وما ينشأ عنه من أخلاق ، فنظر إلى الشعر على هدى المبادىء التى رسم أصولها ، وما اتفقت فيه روح الشعر مع روح الدين فهو من الشعر فى الذروة ، وما خالفه فهو من كلام الغواة الضالين المضلين . ونشأ مقياس جديد لدراسة الأساليب ، ينفر من المعاظلة ، ويمقت الحوشى ، والسجع الذى كان

---

(١) انظر كتابنا « دراسات فى نقد الأدب العربى » ١٨٤

(٢) أصول النقد الأدبى للأستاذ أحمد الشايب : ص ١٠٩

يتكلفه الكهان فى الجاهلية ، ويميل إلى القصد والاعتدال فى كل عمل مادى أو معنوى .

وفى أيام بنى أمية كان لمربد البصرة من الشأن فى حياة الشعر واصطراع الشعراء على السبق والغلبة ، ما كان لسوق عكاظ فى الجاهلية ، فحيّ الشعر أيما حياة ، وعمرت مجالس الخلفاء بالشعراء ، ودخل النقد فى طور جديد ، كان عظيم الأثر فى نشاطه ونموه ، ونشأت علوم العربية ، وقد كانت موادها وسائل للنقد ، وكان النحو واللغة والعروض وقواعدها مقاييس جديدة ، يحكم بها على الشعر . واستمرت تلك المقاييس طوال عهد بنى أمية ، وصدراً من دولة بنى العباس .

فلما كان القرن الثالث وضحت معالم تلك المعارف اللغوية ، وتقاربت تلك النظرات ، وابتدأ دور التأليف فى النقد فى هذا القرن ، فإن أقدم وثيقة وصلت إلينا فى تلك الدراسات كانت وليدة هذا القرن ، وهى صحيفة بشر بن المعتمر (٢١٠هـ) . وإذا تدبرنا تلك الوثيقة وجدناها مجموعة من النصائح تقدم بها كاتبها إلى أصحاب صناعة الأدب . وتلك النصائح تتصل بأنسب الأوقات للعمل الأدبى ، وبالحالة النفسية وتأثيرها فى نتاج الأديب ، وتتحدث عن الطبع والتكلف ، كما تناولت اللفظ والمعنى ، وجعلتهما درجات ، لكل درجة من المعانى درجة من الألفاظ تناسبها ، ولكل طبقة من الناس طبقة من الكلام ، والمعنى الشريف يتطلب اللفظ الشريف ، ومن حقه أن يصان عن كل ما يفسده ويهجنه ، ومدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال . ونعت بشر فى تلك الصحيفة الأديب الذى يستطيع أن يبلغ ببيان لسانه وبلاغة قلمه ولطف مداخله ، إفهام العامة معانى الخاصة ، ويكسوها الألفاظ الواسطة ، التى لاتلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء بأنه البليغ التام . وقال : ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، فيجعل لكل

طبقة منها كلاماً ولكل حالة مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات[1] .

وهذا الكلام عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، هو الذى عرف به العلماء البلاغة فيما بعد . وكثير من تلك الكلمات الموجزة كان نواة بحوث شاملة ، وموضوعات متسعة الأطراف ، متعددة الجوانب عند النقاد والبلاغيين ، فيما بعد .

وشهد هذا القرن مولد التأليف فى الأدب أو فى البيان العربى بأوسع معانيه . فقد ألف الجاحظ (٢٥٥هـ) كتاب البيان والتبيّن ، وألف المبرد (٢٨٥ هـ) كتاب الكامل . وهذان الكتابان يعدان موسوعتين من موسوعات البيان ، بل موسوعات الثقافة الأدبية واللغوية . والتشابه بين أسلوبيهما واضح فى اعتماد كل منهما على الرواية ، وحرصه على الأسانيد ، وفى ذلك الأسلوب الاستطرادى الذى يظهر فى كليهما ، وإن كان اختلاف فى مادة كل منهما فمرجعه اختلاف شخصية مؤلفيهما ، فقد تسلطت على الجاحظ الفكرة الأدبية ، وسيطرت على المبرد الفكرة العلمية .

ولا يعنينا البحث فى ذلك بقدر ما يعنينا أن كلا الكتابين اشتمل على وصف كثير من نعوت الجودة ، والتنبيه على مواضع العيب والمؤاخذة فى النص الأدبى . كما أن فيهما كثيراً من الموازنات بين النصوص المتشابهة فى مغزاها أو مبناها . ويؤخذ عليهما أن تلك النظرات — سواء أكانت نقدية أم تعليمية —

---

(١) النص الكامل لصحيفة بشر بن المعتمر فى البيان والتبين ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٩

منثورة فى ثناياها ، ويدل ذلك على فقدان الروح العلمى فى التنظيم والتقسيم ، وهما على كل حال صورة صادقة للمادة المحتشدة فى ذهن كاتبيهما ، وللعصر الذى ألف كل منهما فيه .

وفى هذا القرن أيضاً ألف ابن سلام (٢٣٢ هـ) كتاب «طبقات الشعراء» وألف ابن قتيبة(٢٧٦ هـ) كتاب«الشعر والشعراء» ،وهذان الكتابان — كما يبدو من اسميهما — كتابان فى الشعراء ، أكثر مما هما كتابان فى درس الشعر ونقده ، والغرض منهما التعريف بعدد من الشعراء ، وشىء من أخبارهم ونصوص من شعرهم ،وإن كان أولهما يمتاز بتقسيمهم طبقات : على حسب الإجادة ،أو كثرة النتاج ، أو القدرة على التصرف فى فنون الشعر ، وإن كان الثانى يمتاز بمقدمته فى أقسام الشعر بحسب لفظه ومعناه ، وفى بعض ما يجب على الناقد من الحيدة والاستقلال فى الرأى ، وعـــدم التقيّد بآراء السابقين ، وفى الشعر المطبوع والمصنوع ،والتعريف بنظام القصيدة ، وتعليله ،وعيوب القوافى ، وعيوب الإعراب مما يقرب من كلام النحاة والعروضيين .

وفيه ألف ابن المعتز (٢٩٦ هـ) كتاب « البديع »الذى ذكر فيه محاسن الـكلام التى استقصاها من كلام السابقين ، وجمع فيه بعض ما وجد فى القرآن وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم واشعار المتقدمين من ذلك الذى سماه المحدثون (البديع) ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم ،وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولـكنه كثر فى أشعارهم : فعرف فى زمانهم ، حتى سمى بهذا الاسم ، فأعرب عنه ، ودل عليه . ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به ، حتى غلب عليه ، وتفرع فيه وأكثر منه ، فأحسن فى بعض ذلك ، وأساء فى بعض ، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف ، وإنمـا كان يقول

الشاعر من هذا الفن البيت أو البيتين فى القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حُظوة بين الكلام المرسل[١] .

ومن الناحية النقدية نرى أن كتاب «البديع» كان أول كتاب تناول الأدب تناولا فنيا، وشرح بعض عناصر الحسن فيه ، وبه انتقل النقد إلى طور جديد ، هو طور العناية بالصورة، وتوجيهه إلى دراسة الشكل ، وقد كان الجهد كله منصرفا إلى نقد المعانى والإشادة بقوتها وفخامتها .

ومن ناحية أخرى يعد كتاب «البديع» أول كتاب فى البلاغة العربية ، وأصبح هذا اللقب فيما بعد علما على واحد من علومها الثلاثة المعانى والبيان والبديع ورأينا أن كلمة « البديع » التى أطلقت على تلك المباحث التى تجمع إلى المحسنات شيئا من العناصر الأصيلة فى الأدب والفن الشعرى بوجه خاص ، كالتشبيه والاستعارة ، والكناية ، كانت ترادف فى ذهن ابن المعتز كلمة « الجميل » .

ولا بن المعتز كتاب آخر فى النقد غير كتاب البديع ، وهو رسالة نبه فيها على محاسن شعر أبى تمام ومساويه ، ولم نهتد إلى تلك الرسالة ، ولم نقف على صحة اسمها ، لكنا قرأنا فى آثار قدامة أن له كتابا فى « الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام »[٢] . وقرأنا شيئا من رسالة ابن المعتز المذكورة فى كتاب « الموشح » لأبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى[٣] ، وفى هذا الجزء آراء صريحة فى النقد ، لا نجد لها نظيراً فى كتاب « البديع » ، فقد عدد فيه بعض أخطاء أبى تمام فى المعانى ، وما أخذه من غيره وادعاه لنفسه ، وشيئا من الموازنة . وكل ذلك يؤكد ما كان

---

(١) عبد الله بن المعتز : كتاب البديع ١٦ — طبعة الحلبى .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ٧ ص ١٣ — طبعة دار المأمون .

(٣) الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ٣٠٧ — طبعة السلفية

يتمتع به ابن المعتز من حسٍّ فنى مرهف ، وذوق رفيع فى تقدير الأدب ونقده .

ولا تعجلنا هذه النظرة السريعة عن الإشارة إلى كثير من الآثار التى كان لها أبعد الأثر فى حياة النقد والبلاغة ، وهى كتب كانت الغاية منها توضيح المعانى القرآنية التى خفيت أسرارها فى بعض البيئات ، بسبب تقادم العهد بينها وبين الوقت الذى نزل فيه الكتاب الكريم . أو الدفاع عن إعجازه ، وإثبات تفوقه على ما عرف من كلام الفحول المشهود لهم بالسبق والإجادة فى صناعة الكلام . ومن أهم هذه الآثار فى ذلك القرن كتاب « مجاز القرآن » الذى ألفه أبو عبيدة معمر ابن المثنى ، وكتاب « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة صاحب « الشعر والشعراء » .

فى ذلك القرن الذى شهد مولد التأليف فى النقد ، ومطلع البحث فى البلاغة نشأ قدامة بن جعفر ، الذى تركزت فى ذهنه تلك العقليات جميعا ، وتأثر بتلك الآثار وغيرها ، ثم مزجها بشخصيته المستقلة ، وفكره الحرّ ، وصاغ من كل أولئك فكرة جديدة شرعت فى حياة النقد الأدبى والبلاغة العربية شرعا جديدا ، ووجهت النقد العربى وجهة جديدة مستقلة عن سائر ألوان المعارف التى كان طغيانها ظاهرا على آثار النقد قبله .

وخلاصة هذا التمهيد أن الدراسات النقدية انتهت إلى قدامة بن جعفر بالمسائل الآتية :

١ — آراء منثورة جرت على الألسنة ، يغلب عليها الأثر الذاتى والذوق الفردى ، ثم تناقلتها الرواة ، حتى سجلت على صفحات الكتب فى عهد التدوين .

٢ — وبظهور الإسلام ظهرت طلائع النقد الموضوعى ، وقياس الأدب بما يتصل بالإسلام من المثل العليا فى الدين والأخلاق .

٣ - ثم كانت مادة علوم اللغة التى نشأت فى عهد بنى أمية أهم وسائل النقد الأدبى إلى القرن الثالث .

٤ — وظهرت بعض الكتب التى وضعت بعض الأسس لتأريخ الأدب والنظر فيه ، ككتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام وكتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة .

٥ — التنبيه إلى بعض نواحى الجمال فى الفنون الأدبية ، أو فى أصحابها كما فعل الجاحظ فى « البيان والتبيين » والمبرد فى « الكامل » .

٦ — وبتأليف ابن المعتز كتابه « البديع » وضع أساس النقد البيانى ، وابتدأ مذهب الصنعة يزدهر فى الأدب وفى النقد .

وبقى بعد هذا أن نعرف قدامة وإفادته من تلك الجهود ، وأثره فى بناء صرح النقد الأدبى ، وهو غايتنا من هذا البحث ، وما سنفصل القول فيه بعد ، وما توفيقنا إلا بالله .